دراسة بيانية في سورة الهمزة

د. محمد فاضل السامرائي•

المقدمة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد :

لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد، وأنه بهر أرباب البيان من العرب، حتى قال أحد صناديد قريش واصفاً القرآن الكريم : ((والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه)).

وقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ [هود13]، فلما عجزوا تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة23] وهذا التحدي يشمل طوال السور وقصارها.

وقد تحدى جميع الخلق إنسهم وجنهم بأن يأتوا بمثله، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾ [الإسراء88].

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة فيه جاءت في المكان الذي يقتضيه سياق النص، بحيث لا يصح إبدال لفظة أخرى بها وإن كانت تقاربها في المعنى.

ولعل أكثر من يقرأ القرآن اليوم لا يتذوقونه كما تذوقه أرباب الفصاحة والبيان من العرب الأوائل، ولا يدركون أسرار الإعجاز البياني ووجه البراعة فيه، فقد يفهمون معنى السورة أو الآية على وجه الإجمال، ولكن قد لا يدركون أسرار التركيب في التعبير القرآني ودقّته في اختيار الألفاظ.

• جامعة تعز ـ قسم اللغة العربية

فقد يقرأ أحدنا سورة الهمزة أو سورة الفيل أو العصر أو النصر أو غيرها من السور ولا يجد معاناة في فهم معناها على وجه الإجمال، ولكن قد لا يستطيع أن يقف على أسرار التعبير القرآني في السورة التي يقرأها وأوجه البيان فيها.

إن هذا البحث محاولة للوقوف على بعض أسرار البيان القرآني في سورة قصيرة قد لا يجد القارئ صعوبة في فهم معناها وهي سورة الهمزة، وقد اخترت هذه السورة لتكون أنموذجًا أبيّن من خلاله القصد في التعبير القرآني، ومدى ترابط الآيات بعضها ببعض، وحبكها حبكًا فنيًّا بديعًا. فوقفت على ألفاظ السورة وبيّنت دلالتها ومدى الدقة في انتقائها. وإذا كان للّفظة أكثر من صيغة استُعملتْ في التعبير القرآني فقد بيّنت سبب تخصيص كل صيغة بسياقها. كما بيّنت أثر الحركة الإعرابية في المعنى، وكيف يتغيّر المعنى بتغيّرها، فبيّنت الدقة في الاستعمال القرآني، ووقفت على التركيب وبيّنت دلالته ودقّة استعماله.

وقد قسّمت بحثي على مطالب، فتناولت في المطلب الأول سبب نزول السورة وتسميتها بهذا الاسم، وفي المطلب الثاني بيّنت مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وفي المطلب الثالث شرعت في الدراسة البيانية لسورة الهمزة.

وقد استعنت في هذه الدراسة بكتب اللغة والتفسير والإعجاز وغيرها من المظانّ، وأما المسائل التي اجتهدت فيها برأيي فأسأل الله تعالى ألاّ يحرمني أجر المجتهدين.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلا لَيُنبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ * وَما أَدْراكَ ما الْحُطَمَةُ * نارُ اللهِ الموقَدَةُ * الَّتي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ * إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةَ * في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ * ﴾

"صدق الله العظيم"

المطلب الأول : سبب نزول السورة وتسميتها بهذا الاسم :

أما سبب نزولها فقد قيل : إنها نزلت في الأخنس بن شريق الذي كان ضاريًا في الغيبة والوقيعة بين المسلمين. وقيل : نزلت في أمية بن خلف. وقيل : في الوليد بن المغيرة[1].

وقد سميت هذه السورة سورة الهمزة لأن جميع آياتها الكريمة تبيّن صفات من يهمز ـ وهو الذي يكسر من أعراض الناس ويغضّ منهم ـ ويلمز ـ وهو الذي يعيب الناس ويطعن فيهم ـ وعقابه الأليم الذي سيناله في الآخرة جزاءً وفاقًا.

والذي يبدو أنها لا تختصّ بهم، بل كل من اتصف بهذه الصفات القبيحة فوزره مثل وزرهم، وعقابه الأخروي مثل عقابهم والله أعلم[2].

المطلب الثاني : مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها (موقع السورة) :

تقع سورة الهمزة بعد سورة العصر مباشرة، وهناك تناسب بين السورتين، فقد اختتمت سورة العصر بقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر * ﴾ ثم جاء عقبها سورة الهمزة المفتتحة بقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * ﴾. ولأول سورة الهمزة ارتباط بآخر سورة العصر، يبيّنه برهان الدين البقاعي (ت 885هـ) في قوله : ((لمّا بيّن الناجين من قسمَي الإنسان في العصر وختم بالصبر، حصل تمام التشوّف إلى أوصاف

---

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ أبو السعود ج9 ص198.

(2) ينظر المصدر نفسه.

الهالكين فقال مبيّنًا لأضلّهم وأشقاهم الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة، ليكون ما أعدّ له من العذاب مسلاة للصبر)) [3].

ومعنى هذا أن آية العصر قد بيّنت الناجين من الخسران ولم تذكر شيئًا من أوصاف الهالكين، وهم الصنف الآخر من صنفَي الإنسان، فجاءت سورة الهمزة لتذكر صفاتهم وعقابهم في الآخرة، فيكون الصابر على أذاهم في نجاة من الخسران.

ويذكر أبو جعفر بن الزبير الغرناطي (ت 708هـ) وجهًا آخر للعلاقة بينهما فيقول: ((لما قال سبحانه: ﴿ إن الإنسان لفي خسر ۝ ﴾ أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنه الكمال بنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظنًّا أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبلُ فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ ﴾ وافتتح تعالى بذكر ما أعدّ له من العذاب جزاءً على همزه ولمزه الذي أثمره خسره)) [4]. بمعنى أنه لما قال في سورة العصر: ﴿ إن الإنسان لفي خسر ۝ ﴾ ذكر في هذه السورة أوصاف الخاسرين ومآلهم.

وهكذا تبدو السورتان كأنهما سورة واحدة من حيث تكامل المعنى ووحدة الموضوع.

ويمكننا أن نقول: إن هناك علاقة ما بين سورة الهمزة والسورة التي تليها - أعني سورة الفيل - فإنه لما ذكر حال الهمزة اللمزة الذي جمع مالاً وعدّده، وتعزّز بماله وتقوّى، عقّب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل الذين كانوا أشد منه قوةً وأكثر أموالاً، وقد جعل كيدهم في تضليل وأهلكهم بالحجارة التي كانت ترميهم بها الطير، وجعلهم كعصف مأكول، ولم يغن عنهم مالهم ولا عزّهم ولا شوكتهم ولا فيلهم شيئًا.

---

(3) نظم الدرر في تناسب الآي والسور - برهان الدين البقاعي ج8 ص525.

(4) البرهان في تناسب سور القرآن - أبو جعفر بن الزبير الغرناطي ص240.

وهكذا تبدو سور القرآن كأنها سورة واحدة، ولا أكون مبالغًا إذا قلت إنها تبدو كأنها آية واحدة.



تبدأ سورة الهمزة بقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۞ ﴾ والويل : هو العذاب الشديد أو الدعاء به. وهو مرفوع على الابتداء. ولم يرد منصوبًا في هذه الآية علمًا بأن وجه النصب جائز فيها. وسبب ذلك أنه بالرفع يكون التقدير جملة اسمية، والمعنى : الدعاء عليه بالعذاب الدائم الذي لا ينقطع، أو إخبار به. وبالنصب يكون التقدير جملة فعلية، والمعنى : أهلكه الله ويلاً. ومن المعروف أن الاسم يدلّ على الثبوت، والفعل يدلّ على الحدوث والتجدّد، مثال ذلك أنك تقول : (سعيد يجتهد) و (سعيد مجتهد) فالعبارة الأولى تدلّ على الحدوث والتجدّد، والثانية تدل على الثبوت. ومن ذلك قولنا : (هو يخطب) و (هو خطيب) فالأولى تدل على أن الخطابة أمر طارئ عليه، والثانية تدل على أنها صفة ثابتة فيه.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ۞ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ منكرون ۞ ﴾ [الذاريات24،25]. نلاحظ أن الملائكة المكرَمين حيَّوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالنصب فقالوا : (سلامًا)، فحياهم بالرفع فقال : (سلامٌ)، والنصب على تقدير جملة فعلية، أي : (نسلّم سلامًا)، وأما الرفع فهو على تقدير اسمية الجملة، أي : (سلامٌ عليكم). فالملائكة حيَّوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بجملة فعلية تدلّ على الحدوث والطروء (أي : التغيّر)، فرد التحية بجملة اسمية تدلّ على الثبوت والدوام، وهذا يعني أنه حيّاهم بأحسنَ من تحيّتهم، قال تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحيةٍ فحَيّوا بأحسنَ منها أو رُدّوها ﴾ [النساء86] فردّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ التحية بخير منها (5).

---

(5) ينظر بدائع الفوائد ـ ابن قيّم الجوزية ج2 ص157.

وعلى هذا فـ (ويلٌ) بالرفع جملة اسمية تدلّ على الثبوت، فإذا كان دعاءً فهو ـ كما ذكرت ـ دعاء بعذاب دائم لا ينقطع، وإذا كان يفيد الإخبار فهو إخبار به.

ولو قال (ويلاً) بالنصب لكان ذلك على تقدير جملة فعلية تدل على الحدوث والتغيّر، فهو إما دعاء بالعذاب الطارئ غير الدائم أو إخبار به، لأنه على هذا الوجه مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره : أهلكه الله ويلاً.

يقول الزمخشري (ت 538هـ) مبيّنًا سبب مجيء (ويلٌ) بالرفع على الابتداء في قوله تعالى : ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين ﴾ [المرسلات15] : ((فإن قلت : كيف وقع النكرة مبتدأً في قوله : ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين ﴾ قلت : هو في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله، ولكنه عدَل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه)) [6].

ويبيّن رضي الدين الاستراباذي (ت 686هـ) التقدير في قولنا : (ويلٌ لك) وسبب اختيار وجه الرفع على النصب فيقول : ((وكذا "ويلٌ لك" هلكت ويلاً، أي : هلاكًا، فرفعوه بعد حذف الفعل نفضًا لغبار معنى الحدوث)) [7].

والمعنى أنه بالنصب على تقدير فعل، أي أنه يدل على الحدوث. فعندما رفعوه انتفت دلالة الحدث وصار يدل على الدوام والثبوت.

ويقول محمد بن علي الصبّان (ت 1206هـ) مشيرًا إلى قول الرضي المذكور آنفًا وموضحًا له : ((هذا يقتضي أنه لو لم يعدل إلى الرفع لانتفت الدلالة على الدوام، وهو كذلك، كما صرّح به الرضي في باب المبتدأ، لأن بقاء النصب صريح في ملاحظة الفعل وتقديره، وهو يدل على التجدد، فلا يستفاد الدوام إلا بالعدول إلى الرفع)) [8].

---

(6) تفسير الكشاف ـ جار الله الزمخشري ج4 ص203.

(7) شرح كافية ابن الحاجب ـ رضي الدين الإستراباذي ج1 ص207.

(8) حاشية الصبّان على شرح الأشموني ـ محمد بن علي الصبّان ج1 ص9، وينظر شرح المفصل ـ ابن يعيش ج1 ص87، 93.

وعلى هذا فالتعبير بالرفع يدل على دوام العذاب واستمراره، بخلاف التعبير بالنصب فإنه لا يدل على ذلك.

وقد لاحظت أن كلمة (ويل) في الاستعمال القرآني تأتي منصوبة إذا أضيفت، ومرفوعة إذا لم تكن مضافة. فمثال مجيئها منصوبة وهي مضافة قوله تعالى: ﴿ ويلَكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتَكم بعذاب ﴾ [طه61] وقوله: ﴿ قالوا يا ويلَنا إنّا كنّا ظالمين ❖ ﴾ [الأنبياء14] وقوله: ﴿ وهما يستغيثان الله ويلَك آمنْ ﴾ [الأحقاف17] وغيرها من الآيات التي وردت فيها كلمة (ويل) مضافة.

ومثال مجيئها مرفوعة عند عدم إضافتها قوله تعالى: ﴿ وويلٌ للكافرين من عذاب شديد ❖ ﴾ [إبراهيم2] وقوله: ﴿ فويلٌ للمصلين ❖ الذين هم عن صلاتهم ساهون ❖ ﴾ [الماعون4،5] وغير ذلك.

كما لاحظت في الاستعمال القرآني لهذه الكلمة أن ما ذكره الله تعالى على لسان البشر يأتي منصوبًا، وما لم يكن كذلك يأتي مرفوعًا. فمثال ما ورد ذكره على لسان البشر قوله تعالى: ﴿ قالوا يا ويلَنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس 52] وقوله: ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلَكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ [القصص 80] ونضيف إلى هاتين الآيتين ما ذكرناه من الآيات عند كلامنا على مجيئها منصوبة عند إضافتها، وغيرها من الآيات.

ومثال ما لم يرد ذكره على لسان البشر، بل ورد ذكره عن رب العزة مباشرة قوله تعالى: ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون ❖ ﴾ [البقرة79] وقوله: ﴿ وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديدٍ ❖ ﴾ [إبراهيم2] وقوله: ﴿ ولكم الويلُ مما تصفون ❖ ﴾ [الأنبياء18] نلاحظ في هذه الآيات وغيرها أن كلمة (ويل) وردت مرفوعة.

ثم إن سبب لزوم الويل لمن لزمه أنه اتصف بصفتين على وجه الثبوت، فهو هُمَزة لُمَزة، بمعنى أن الهمز واللمز خصلتان سيّئتان لا تنفكّان عنه، فاستحق العذاب الذي لا ينقطع.

وهذا في القرآن كثير، فقد رأيت أن كثيرًا ممن لزمهم الويل على جهة الثبوت اتصفوا بصفات سيّئة لا تنفك عنهم، فقوله تعالى : ﴿ ويلٌ للمطففين ❖ ﴾ [المطففين1] يدل على أن التطفيف ـ وهو البخس في الكيل والوزن، وسمي بذلك لأن ما يُبخَس شيء طفيف ـ خصلة سيّئة تلازمهم. وقوله : ﴿ فويلٌ للمصلين ❖ الذين هم عن صلاتهم ساهون ❖ ﴾ [الماعون4،5] يعني أن سهوهم دائم، بدليل أنه قال : (ساهون) بالصيغة الاسمية الدالّة على الثبوت، ولم يقل : (يسهون) بالصيغة الفعلية الدالّة على الطروء، فاستحقوا العذاب الدائم. ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ ويلٌ لكل أفّاكٍ أثيمٍ ❖ ﴾ [الجاثية7] فلا يخفى عليك ما تدل عليه صيغة (أفّاك) و (أثيم) من المبالغة في الوصف ... وهكذا.

ونلاحظ أن الويل جاء منكرًا في آية الهمزة، والغرض من تنكيره التهويل، والمعنى أن له عذابًا شديدًا لا يعلم كنهه إلا الله تعالى.

ولم ترد معرَّفة ب (أل) إلا في موطن واحد وهو قوله تعالى : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ❖ ﴾ [الأنبياء18] وسبب ذلك أن هذه الآية يقتضي المقام تعريفها بـ (أل)، فقد سبقت بقوله تعالى : ﴿ قالوا يا ويلنا إنّا كنّا ظالمين ❖﴾ [الأنبياء14] فجاء الرد عليهم (ولكم الويل) بمعنى أن الويل الذي ناديتم به هو لكم [9].

وأما لام الجر في (لكلّ) فمعناه الاستحقاق، بمعنى أن كل من يهمز ويلمز يستحق هذا العذاب الشديد.

والهُمَزة : من الهمْز، وهو الكسر، يقال : (همز الجوزة بيده) أي : كسرها [10]. فالهُمَزة : هو الذي تعوّد على أن يكسر أعراض الناس ويغض منهم.

---

(9) ينظر تفسير الرازي ج32 ص91.

(10) لسان العرب ـ ابن منظور ج5 ص425 ـ 426 (مادة همز).

وأمـا اللُّمَـزة فهـي مـن اللَّمْـز، وهـو الطعن [11]. فاللُّمَزة : هو الذي صار ديدنه أن يعيب الناس ويطعن فيهم. قال تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة 58] وقـال : ﴿ الـذين يلمـزون المطـوّعين مـن المؤمـنين في الصـدقات ﴾ [الـتوبة79] فنلاحظ في هاتين الآيتين أن الفعل (يلمز) أتى على المعنى الذي ذكرناه.

و(هُمَـزة) و (لُمَـزة) كلاهمـا علـى وزن (فُعَلـة) ويـدلان علـى الكـثرة والمبالغة. ويصـاغان علـى وزن (فَعّـال) أيضـًا فـنقول : هَمّـاز ولَمّـاز، وهـذه الصـيغة تفيد الكثرة والمبالغة كذلك.

ولا يظنـنَّ ظـانّ أن (هَمّـازًا) و (هُمَـزة)، و (لَمّـازًا) و (لُمَـزة) بمعنـى واحـد، لأن الاختلاف في المبنى يدل على الاختلاف في المعنى. يقول أبو هلال العسكري (ت 400هـ) : ((فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظنّ كثير من النحويين واللغويين)) [12]، أي أن اختلاف بناء الكلمة في لغة من لغات العرب يدل على اختلاف المعنى.

ويقـول أيضـًا : ((ومـن لا يـتحقق المعانـي يظن أن ذلك كله يفيد المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها)) [13].

وقـد اسـتعمل القـرآن الكـريم الصـيغتين (هُمَـزة) و (هَمّـاز)، فقـال في سـورة الهمزة : ﴿ وَيْلٌ لِكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ وقال في سورة القلم : ﴿ ولا تطع كل حلاّف مهين ❖ هَمّـاز مَشّـاء بنميم ❖ ﴾ [10 ـ 11] وهذا الخلاف في مبنى الكلمة لا بدّ أن يترتّب عليه خلاف في معناها.

ولتوضيح هـذا الفرق أقـول : إذا كـرّر فعل الشـيء بني على (فَعّال). يقول أبو هلال العسكري : ((إذا فعل الفعل وقتًا بعد وقت قيل (فَعّال) نحو عَلاّم وصَبّار)) [14].

---

(11) المصدر نفسه ـ ج5 ص406 ـ 407 (مادة لمز).

(12) الفروق اللغوية ـ أبو هلال العسكري ص35.

(13) المصدر نفسه ص36. لم نذكر المعاني التي ذكرها لأنه لا حاجة لنا بها إلا ما ذكره من معنى (فَعّال).

(14) المصدر نفسه ص36.

ويذكر محمد بن طلحة (ت 618هـ) أن فَعّالاً لمن صار له صناعة[15]. فكما أن (النجّار) يُطلق على من كانت حرفته النجارة، و (الحدّاد) على من كانت حرفته الحدادة، كذلك (الهَمّاز) و (اللّمّاز) يطلقان على من اتخذ الهمز واللمز حرفة له.

ولتخصيص آية القلم بقوله : (همّاز) سببه، فهو يدل على أن هذا المعتدي الأثيم الزنيم قد اتخذ صفة الهمز، والحلف بالكذب، والمشي بالنميمة لأجل أن يوقع بين المسلمين العداوة والبغضاء، ومنع الخير على وجه العموم، حرفة وصناعة له، لكثرة ممارسته لتلك الصفات القبيحة: هذا علاوة على التناسب اللفظي ما بين هذه الصفات، فقد وردت جميع الصفات المذكورة على صيغة (فَعّال)، قال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حَلاّف مهين ❖ همّاز مَشّاء بنميم ❖ مَنّاع للخير معتدٍ أثيم ﴾. فلو قال : (همُزة) في هذا الموطن لاختل التناسق ما بين الصفات المذكورة في الآية.

وأما (فُعَلة) - بضم الفاء وفتح العين - فصيغتها ((تدل على كثرة صدور الفعل المصاغ منه، وأنه صار عادة لصاحبه، كقولهم : ضُحَكة : لكثير الضحك، ولُعَنة : لكثير اللعن))[16].

وعلى هذا فالهُمَزة واللُّمَزة هو الذي يهمز ويلمز الناس كثيرًا حتى يعتاد ذلك. والأصل فيهما (هُمَز) و (لُمَز) على وزن (فُعَل)، وهذا الوزن من أوزان المبالغة، نقول : (هو فُسَق) إذا كان كثير الفسق، و (هو غُدَر) إذا كان كثير الغدر.

وإذا كان (هُمَز) و (لُمَز) للمبالغة، فإن لحوق التاء بهما يزيد من المبالغة في الوصف كقولك : (هو علاّم) و (هو رحّال) لمن كان كثير العلم والترحال. فإذا أردنا زيادة العلم والترحال وتأكيدهما قلنا : (هو علاّمة) و (هو رحّالة). جاء في (الخصائص) أن التاء في نحو ما مر ((لم

(15) ينظر همع الهوامع شرح جمع الجوامع - جلال الدين السيوطي ج3 ص59.
(16) التحرير والتنوير - ابن عاشور ج30 ص471، وينظر تفسير الكشاف ج4 ص283.

تلحق لتأنيث الموصوف بما هي فيه، وإنما لحقت لإعلام السامع أن هذا الوصف بما هي فيه قد بلغ الغاية والنهاية، فجعل تأنيث الصفة أمارة لما أريد من تأنيث الغاية والمبالغة)) [17]. وجاء في (شرح كافية ابن الحاجب) أن التاء ((تدخل كثيرًا على (فَعَل) مفتوح العين بمعنى فاعل)) [18]. وجاء في (شرح التصريح على التوضيح): ((وتأتي التاء للمبالغة في الوصف ك (راوية) لكثير الرواية. وإنما أنّثوا المذكّر لأنهم أرادوا أنه غاية في ذلك الوصف ... ولتأكيدها، أي المبالغة الحاصلة بغير تاء ك (نسّابة)، وذلك لأن فعّالاً يفيد المبالغة بنفسه، فإذا دخلت عليه التاء أفادت تأكيد المبالغة لأن التاء للمبالغة)) [19]. وجاء في (التحرير والتنوير): ((وأصلها أن صيغة (فُعَل) بضم ففتح ترد للمبالغة في الفاعل، فإذا أريدت زيادة المبالغة في الوصف أُلحق بها التاء كما أُلحقت في (علاّمة) و (رَحّالة)، فيقولون: رجل حُطَمة وضُحَكة، ومنه هُمَزة. وبتلك المبالغة الثانية يفيد أن ذلك تفاقم منه حتى صار له عادة قد ضري بها)) [20].

ثم إن صيغة (فُعَلة) تشمل المذكر والمؤنث [21]، نقول: (رجل هُمَزة لُمَزة) و (امرأة هُمَزة لُمَزة)، بخلاف صيغة (فُعَل) فإنها مختصة بالمذكر، فقال: ﴿ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ لتشمل كل من يهمز ويلمز سواء أكان ذكرًا أم أنثى.



ثم قال: ﴿ الَّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ ﴾

قراءة الجمهور (جمَع) بتخفيف الميم، وقراءة ابن عامر (ت 118هـ) وحمزة (ت 156هـ) والكسائي (ت 189هـ) بتشديدها، وتحمل قراءة التشديد على

(17) الخصائص - ابن جني ج2 ص201.

(18) شرح كافية ابن الحاجب ج3 ص395.

(19) شرح التصريح على التوضيح - خالد الأزهري ج2 ص492.

(20) التحرير والتنوير ج30 ص471.

(21) ينظر الخصائص ج2 ص201.

التكثير والمبالغة. وهي موافقة لقوله : (وعدّده)، في حين تحمل قراءة التخفيف على التكثير وعدمه [22].

ثم إن الفعلين الماضيين (جمَع) و (عدّده) يحتملان في هذه الآية دلالة الماضي والحال والمستقبل بدليل أنه قال في الآية التي بعدها : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ ❖ ﴾ بمجيء (يحسب) فعلاً مضارعًا، حيث إن هذا النمط من الناس وجد في الماضي ويتكرر في كل حين.

وأما تنكير (مال) فهو يحتمل التقليل والتكثير. ووجه حمله على التقليل ((أن مال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير، فكيف يليق به أن يفتخر بذلك القليل؟)) [23].أو أن ما جمعه من مال الدنيا يعدّ زهيدًا إذا ما قورن بما فقده من نعيم الآخرة.

وقد يحمل تنكيره على التكثير وبخاصّة إذا كان الفعل مشدّدًا، ووجه ذلك أنه يحرص على أن تكثر أمواله دون أن يراعي مصدرها. ثم إنه يحرص على اكتنازها وعدم إنفاقها في وجوه الخير، قال تعالى : ﴿ وجمع فأوعى ❖ ﴾ [المعارج18].

ثم إن التضعيف في قوله : (وعدّده) للمبالغة والتكثير، فهو يفيد أنه أكثر من تعداده، فإن كان تنكير المال للتقليل فهذا يعني أنه يعاود عدّه مرة تلو الأخرى، وإن كان تنكيره للتكثير فهذا يعني أن عدّه يستغرق وقتًا طويلاً. جاء في (نظم الدرر) : ((وأكّد مراد الكثرة بقوله : (وعدّده) أي جعله بحيث إذا أريد عدّه طال الزمان فيه وكثر التعداد)) [24].

وهذا كما في قولنا : (فلان يعدّد فضائل فلان) فإذا كانت فضائله قليلة فهذا يعني أنه يكثر من تعدادها، فكلما انتهى منها أعاد عدّها، وإذا كانت

---

(22) ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ـ السمين الحلبي ج11 ص106.

(23) تفسير الرازي ج32 ص92 ـ 93.

(24) نظم الدرر ج8 ص526.

فضائله كثيرة فهذا يعني أن تعدادها كلها يستغرق وقتًا طويلاً. وهذا بخلاف قولنا : (فلان يعدّ فضائل فلان) فإنه يحتمل التقليل والتكثير.

وكما في قولنا : (فتّح الأبواب) بتشديد التاء، فالفعل (فتّح) للتكثير، وهو يعني أحد احتمالين :

الاحتمال الأول : أن الأبواب إذا كانت قليلة فهذا يعني أنه يكثر من تفتيحها، بمعنى أنه يكثر من الحدث.

والاحتمال الآخر : أن الأبواب إذا كانت كثيرة فهذا يعني أن تفتيحها كلها يستغرق وقتًا طويلاً.

بخلاف قولنا : (فتَح الأبواب)بتخفيف التاء، فإنه يحتمل التقليل والتكثير ... وهكذا.



ثم قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾

معنى هذه الآية : يظن أن ماله أبقاه خالدًا في الدنيا لا يموت.

وسبب اختيار الفعل (يحسب) دون الفعل (يظن) ـ مع أنه بمعناه كما يقول النحاة ـ ((أن (حسب) القلبي منقول من (حسب) الحسي الذي منه الحساب. ومنه (حسب الدراهم) أي عدّها، فإن (حسب) في قولك : (حسبت محمدًا صاحبك) فيه معنى الحساب، أي : حسب ذلك وانتهى إلى ما انتهى إليه. وليس هذا الفعل مطابقًا للظن تمامًا، فهناك فرق بين قولك : (تحسبهم جميعًا) و (تظنهم جميعًا)، فإن قولك : (تحسبهم جميعًا) إنما يكون بعد مراقبة أحوالهم، فكأنك أجريت عملية حساب فأدّى حسابك إلى ذلك، بخلاف قولك : (أظنهم).

فالحسبان قائم على الحساب والنظر العقلي، بخلاف الظن الذي يدخل الذهن ويلابسه لأدنى سبب)) [25].

---

(25) معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ج2 ص440 ـ 441.

واستعمال هذا الفعل في هذه الآية دون غيره من أفعال الظن مناسب لسياق الآيات أتم مناسبة، لأنها جاءت بعد الآية التي ذكر فيها جمع الأموال وحسابها وهي قوله تعالى: ﴿ الَّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ ﴾. ولعله استعمل هذا الفعل في هذا الموطن للتهكم به.

وهناك تناسب فني جميل بين هذه الآية والآية التي قبلها، فقد ذكرت هذه الآية الزيادة في العمر، وذكرت الآية التي قبلها الزيادة في المال، فهو يحسب أن زيادة ماله تزيد في عمره.

وقد أورد الفعل (أخلده) بصيغة المضيّ علمًا بأن الخلود مستقبل فكان مقتضى الأمر أن يقول: يحسب أن ماله سيخلده. وسبب ذلك أن الخلود متحقق الوقوع عنده.فهو بمنزلة الفعل الماضي من حيث الوقوع، فكما أنه لا شك في حدوث الفعل الماضي الذي تمّ وحصل كذلك لا شك عنده في حدوث الإخلاد.

ثم إن هذا الذي جمع الأموال وحرص على كنزها يرى أن الحكم بخلوده أمر قد تم وفرغ منه. ويبقى هذا الشعور ملازمًا له ما دام ثريًا.

وقد يكون ((تعريضًا بالعمل الصالح وأنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخرة في النعيم المقيم))[26].

ويجوز أن تكون الآية على تقدير همزة الاستفهام[27]، أي: أيحسب، كما في قوله تعالى: ﴿ قالوا إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين ❖ قال نعم وإنكم لمن المقربين ❖ ﴾ [الأعراف113،114] أي: أئنّ لنا لأجرًا؟ بدليل قوله في موطن آخر: ﴿ قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين ❖ قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين ❖ ﴾ [الشعراء41،42].

ومنه قول الكميت:

طربت وما شوقًا إلى البيض أطرب ... ولا لعبًا مني وذو الشيب يلعب

(26) تفسير الرازي ج32 ص93، وينظر تفسير الكشاف ج4 ص283.

(27) ينظر التحرير والتنوير ج30 ص473.

أراد : أوَ ذو الشيب يلعب؟

والهمزة في قوله : (أخلده) للتعدية، أي : جعله خالدًا. وهذا التعبير تعبير مجازي، فقد شبّه ماله بمن له قدرة على إخلاده، فحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية. وظنه أن لماله القدرة على إخلاده يدل على سذاجته في حسبانه.



ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾

(كلا) حرف ردع وزجر، فهو ردع له عن حسبانه أن ماله سيخلده.

والنبذ هو ((إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به)) (28). وقد ذكر الفعل بلفظ النبذ دون الطرح أو الإلقاء، لأن النبذ فيه دلالة على الإهانة والاحتقار. يقول الزمخشري في كلامه على قوله تعالى في فرعون وجنوده : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ [القصص40] : ((شبّههم استحقارًا لهم واستقلالاً لعددهم ـ وإن كانوا الكثير والجمّ الغفير ـ بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر)) (29). وكذلك الحال في آية الهمزة، فهو يلقى في جهنم مهانًا محتقرًا بعد ما كان يظن أن ماله سيجعله من المكرمين.

وقد استغني عن القسم بجوابه، حيث إن الجواب دليل على القسم المحذوف، فقد وقعت اللام الموطئة للقسم في جواب القسم مع تأكيد الفعل بالنون، والتقدير : والله لينبذنّ في الحطمة.

والملاحظ أن الفعل جاء مبنيًّا للمجهول، والغرض من حذف الفاعل إما التعظيم أو العلم به. أما التعظيم فالمقصود منه أن هذا المنبوذ لهوانه وذله واحتقاره لا يستحق أن يذكر معه من ينبذه. فستر ذكر النابذ بجنب ذكر المنبوذ تعظيمًا

(28) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ص483.

(29) تفسير الكشاف ج3 ص180.

للفاعل. وأما العلم به فالمقصود منه أن الفاعل معروف وهو ملائكة العذاب، فاستغني عن ذكرهم ببناء الفعل للمجهول. وقد يكون ذلك لكلا الغرضين.

وأما (الحُطَمة) فهي مأخوذة من (الحطم) وهو كسر الشيء. والحطام : ما يتكسر من اليُبْس، قال تعالى : ﴿ ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يجعله حطامًا ﴾ [الزمر21] [30]. وعلى هذا فالحطمة هي ((الطبقة من النار التي من شأنها أن تحطّم، أي تكسّر وتهشّم بشدة وعنف كل ما طرح فيها)) [31].

ولما كان الهُمَزة اللمزة يكسر أعراض الناس ويغض منها، كان مصيره (الحطمة) التي تكسر أضلاعه وكبرياءه وتحطّمهما. جاء في كتاب (الإنصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال) : ((وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه أتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سماها الحطمة لما يلقى فيها، وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء، فهذا الذي ضري بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية بحطم كل ما يلقى فيها)) [32].

ومعنى هذا أن هذه اللفظة على وزن (فُعَلة)، وكذلك (الهُمَزة) و (اللُّمَزة)، ولعل في هذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل.



ثم قال : ﴿ وَما أَدْراكَ ما الْحُطَمَةُ ﴾

هذا الأسلوب من أساليب التفخيم والتهويل، كما في قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ [القارعة3] وقوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ [البلد12] تعظيمًا لأمرها وبيان أنها ليست من الأمور التي يمكن أن تدركها العقول.

---

(30) المفردات في غريب القرآن ص130.

(31) نظم الدرر ج5 ص526، وينظر المفردات في غريب القرآن ص130.

(32) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - أحمد بن المنيّر الإسكندري - هامش تفسير الكشاف ج4 ص283 - 284.

وقد كرّر الحطمة في هذه الآية ولم يضمرها فيقل : (وما أدراك ما هيه) لأن الإظهار في موطن الإضمار يفيد التهويل والتعظيم.

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي أن وضع الظاهر موضع المضمر قد يفيد الاحتياط للمعنى، وأوضح هذا الأمر بقوله : ((إذا أرادت العرب العناية بذكر الاسم الظاهر وبيان أن الحكم متعلق به ذكرته وأعادت ذكره احتياطًا للمعنى، وذلك أنه إذا ذكر الاسم ثم جاء بعده كلام فقد يكون المخاطب لم يسمع الاسم أو ينصرف ذهنه إلى غيره فتحتاط لذلك بأن تكرّره لتقوية المعنى وتثبيته وإزالة اللبس عنه ورفع احتمال التوهم فيه))[33] وضرب على ذلك أمثلة من القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى : ﴿ سأصليه سقر ❖ وما أدراك ما سقر ❖ لا تبقي ولا تذر ❖ ﴾ [المدثر26 ـ 28] فإنه كرر (سقر) ولم يقل : وما أدراك ما هي؟ ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ❖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ❖ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ❖﴾ فقد كرر اسم (الحطمة) وأعادها ولم يقل : ما هي ؟ فنرى في هاتين الآيتين ((أنه كرر اسم (سقر) و (الحطمة) وأعادهما بلفظهما احتياطًا للمعنى وتثبيتًا له في النفس، ولم يقل كما قال في سورة القارعة : ﴿ فأمه هاوية ❖ وما أدراك ما هيه ❖ نار حامية ❖﴾ [القارعة 9 ـ 11]))[34].

ثم يبين سبب الاحتياط للمعنى في آيتي المدثر والهمزة دون آية القارعة فيقول : ((إنه عندما ذكر (سقر) تكلم عليها وذكر بعض صفاتها فقال : ﴿سأصليه سقر ❖ وما أدراك ما سقر ❖ لا تبقي ولا تذر ❖ لوّاحة للبشر ❖ عليها تسعة عشر ❖ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ... ﴾[26 ـ 31].

(33) الجملة العربية والمعنى ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ص143.

(34) المصدر نفسه.

وكذلك عندما ذكر الحطمة فقد قال : ﴿ كَلا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ❖ وَما أَدْراكَ ما الْحُطَمَةُ ❖ نارُ اللَّهِ الموقَدَةُ. الَّتي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ ❖ إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَة ❖ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ❖﴾.

في حين لم يزد في سورة القارعة على أن قال : ﴿وما أدراك ماهيه ❖ نار حامية❖﴾ [10 ـ 11].

ففي آيات المدثر والهمزة من الاهتمام والعناية بالمعنى ما يدعو إلى إعادة الذكر والتصريح بالاسم الظاهر دون الضمير. ومعلوم أن الاسم الظاهر أبلغ وأقوى من الضمير كما هو مقرر في العربية)) [35].

والغالب في الاستعمال القرآني أنه إذا ورد فيه (وما أدراك) أي : بصيغة المضيّ، أعقبه ببيان، فقد أعقب الحطمة بيانها في قوله : ﴿ نارُ اللَّهِ الموقَدَةُ ❖ ﴾. ونحوه قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر❖ ﴾ [القدر2] حيث بيّنها بقوله : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ❖﴾[القدر3]. وعقب قوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة❖﴾ [البلد12] ورد قوله : ﴿ فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة ❖﴾ [13،14] وهكذا.

ومن غير الغالب قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ❖ ﴾ [الحاقة3] فهذه الآية لم يعقبها بيان، وإنما ورد عقبها مصارع الأقوام البائدة وذلك في قوله تعالى : ﴿ كذّبت ثمود وعاد بالقارعة ❖ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ❖ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ❖﴾ [4 ـ 6].

وكل موضع ذكر فيه (وما يدريك) أي : بصيغة المضارع، فإنه لا يعقبه ببيان، نحو قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا ﴾ [الأحزاب62] وقوله : ﴿ وما يدريك لعلّ الساعة قريب﴾ [الشورى17] وقوله : ﴿ وما يدريك لعلّه يزّكّى ❖﴾ [عبس3].

(35) المصدر نفسه ص143 ـ 144.

وقد رأيت أن القرآن الكريم ورد فيه (وما أدراك) ولم يرد (ما أعلمك) وذلك لأن ((الدراية تكون بعد الجهل بالشيء، ولذا لا تستعمل في حق الله تعالى، و(علم) أعم من ذلك، فقد يستعمل في ذلك وغيره))[36].



وبعدها قال سبحانه: ﴿ نارُ اللهِ الموقَدَةُ ۞ الَّتي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ ۞ ﴾

أما الإضافة في ﴿ نارُ اللهِ ﴾ فهي للتفخيم والترويع. وإنما قال (الموقدة) بالصيغة الاسمية للدلالة على دوام إيقادها وأنها لا تخمد أبدًا. قال تعالى: ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرًا ﴾ [الإسراء97]. جاء في تفسير (التحرير والتنوير): ((ووصفت (نار) ب (موقدة)، وهو اسم مفعول من (أوقد النار) إذا أشعلها وألهبها. والتوقد: ابتداء التهاب النار، فإذا صارت جمرًا فقد خفّ لهبها أو زال. فوصفُ (نار) ب (موقدة) يفيد أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها))[37].

وقد بيّن الزمخشري معنى قوله: ﴿ تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ ۞ ﴾ فقال: ((يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطّلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألّمًا منه بأدنى أذى يمسّه، فكيف إذا اطّلعت عليه نار جهنم واستولت عليه))[38].

والفعل (تطّلع) فعل مضارع من معانيه (تأتي)، ماضيه (اطّلع) على وزن (افتعل). وهذا الوزن من معانيه المبالغة، مثل (اجتهد)، أي: بالغ في بذل الجهد. وكذلك (تطّلع) في هذه الآية، فهذا الفعل يعني أن نار الله تبالغ في الاطّلاع، أي: الإتيان، حتى تصل إلى الفؤاد. قال ابن عاشور: ((والاطّلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في (طلع)، أي: الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فالمعنى: التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد))[39].

---

(36) معاني النحو ج2 ص426.

(37) التحرير والتنوير ج30 ص475.

(38) تفسير الكشاف ج4 ص283.

(39) التحرير والتنوير ج30 ص475.

والمعنى الآخر للاطّلاع هو ((الكشف والمشاهدة، قال تعالى : ﴿ فاطّلع فرآه في سواء الجحيم ❖ ﴾ [الصافات55] فيفيد أن النار تحرق الأفئدة إحراق العالم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر، فتصيب كل فؤاد بما هو كفاؤه من شدة الحرق على حسب مبلغ سوء اعتقاده))[40].

وتخصيص الأفئدة بذلك له أكثر من سبب :

منها أن الفؤاد هو الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وهو موطن الكفر والتكبر والغرور، والعقائد الباطلة والنيات الفاسدة.

ومنها أنه ((لما كان منشأ جمع المال استيلاء حبه على القلب جيء في مقابله ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ❖ ﴾))[41].

وأما (على) فهي للاستعلاء، بمعنى أن النار تعلو فؤاده وتغطّيه. وأما (أل) في (الأفئدة) فهي عهدية، وهي التي تدخل على واحد من أفراد الجنس بعينه، فالنار تأتي على أفئدة الكفار دون أفئدة المؤمنين، ((وتعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب))[42].



وتختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ❖ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ❖ ﴾ معنى الآية أنها مطبقة عليهم فلا يستطيعون الخروج منها. وهناك سببان في تقديم الجار والمجرور (عليهم) على (مؤصدة) :

أحدهما : لفظي، وهو مراعاة فواصل الآي، فكلمة (مؤصدة) جاءت خاتمة الآية، وهي المناسبة لخواتم الآي : لمزة ـ عدده ـ أخلده ـ موقدة ـ الأفئدة ـ ممدّدة. ولو قال : (إنها مؤصدة عليهم) لاختلّ نظم الفواصل.

والثاني : معنوي، وهو أن التقديم هنا للحصر، فإن أبواب النار مؤصدة عليهم حصرًا فلا يخرجون منها أبدًا. أما غيرهم من عصاة المؤمنين فقد يخرجون

---

(40) المصدر نفسه.

(41) روح المعاني ج30 ص232.

(42) الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله القرطبي ج20 ص185.

منها بعد أن ينالوا عقابهم. ولو قال : (إنها مؤصدة عليهم) لم يفد الحصر، بل لأفاد أنها مؤصدة عليهم، وقد تكون مؤصدة على غيرهم أيضًا، وهو غير مراد في هذه الآية [43].

وقرأ (مؤصدة) بالهمز أبو عمرو بن العلاء وحفص وحمزة من السبعة، ويعقوب وخلف من العشرة، وقرأها الباقون (موصدة) بغير الهمزة [44]. وهما لغتان : أصد ووصد، بمعنى أطبق وأغلق. جاء في (روح المعاني) : ((مؤصدة : مطبقة، من (آصدت الباب) إذا أغلقته وأطبقته. وهي لغة قريش على ما روي عن مجاهد ... ويجوز أن يكون من (أوصدته) بمعنى غلّقته أيضًا. وهمز على من قرأ (بالسؤق) مهموزًا. وقرأ غير واحد من السبعة (موصدة) بغير همز، فيظهر أنه من أوصدت ... والمراد : مغلّقة أبوابها. وإنما أغلقت لتشديد العذاب ـ والعياذ بالله تعالى ـ عليهم)) [45].

ولاختيار الهمزة دلالته، ((ذلك أن الهمزة حرف ثقيل شديد، وهي على كل حال أثقل من الواو، فاختار الهمزة على الواو لثقلها وشدتها، لأن الموقف شديد وصعب، فهي المناسبة لثقل ذلك اليوم وصعوبته وشدته، قال تعالى : ﴿ ويذرون وراءهم يومًا ثقيلاً ﴾ [الإنسان27] وإن النطق بها لثقيل، فإذا قال : (مُؤْ) كان كأن الشخص يعاني من أمر ثقيل. فهي أنسب وأدلّ على الكرب والثقل من التسهيل والنطق بالواو)) [46].

وأما قراءة (موصدة) بغير همز فلعلها مأخوذة من (الوصيدة) وهو بيت يتخذ من الحجارة للمال في الجبال [47].

---

(43) ينظر لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ص279.

(44) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ـ البنّاء الدمياطي ص585، وكنز المعاني شرح حرز الأماني ـ أبو عبد الله محمد ابن أحمد الموصلي المعروف بشعلة ص386.

(45) روح المعاني ج30 ص232.

(46) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص280.

(47) ينظر المفردات في غريب القرآن ص539.

ثم إننا نلاحظ أنه قال : (مؤصدة) بالصيغة الاسمية للدلالة على دوام الإيصاد واستمراره، وقال في الآية التي قبلها : ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ فقال : (موقدة) بالصيغة الاسمية للدلالة على دوام إيقادها كما ذكرنا. وهذا مرتبط بما ورد في أولها من قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ حيث ((دعا عليهم بالهلاك الدائم الذي لا ينقطع. ورفع (الويل) يفيد الثبوت، فناسب الدلالة على الدوام أن يقول : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ❖ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ للدلالة على الاستيثاق من غلق أبواب جهنم عليهم))[48].

كما أن لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ❖ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ارتباطًا بما ورد في الآية الثانية من قوله : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ حيث ((إن هذا الكافر يجمع المال ويعدّده ويحفظه، فكما حفظ المال وجمعه وأغلق عليه الأبواب واستوثق من حفظه، أغلقت عليه أبواب جهنم واستوثق منها بأنها مُدّت عليها الأعمدة، فناسب الاستيثاق من حفظ المال وإيصاد الأبواب عليه الاستيثاقَ وإطباقَ الأبواب عليه في النار ... والجزاء من جنس العمل))[49].

كما أن لهاتين الآيتين ارتباطًا بما ورد في الآية الثالثة من قوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ فقد ذكرت هذه الآية ((أن هذا الكافر يحسب أن ماله أخلده في الدنيا وأبقاه، وأنه لا يفارقها، فعوقب بذلك بالخلود في النار، وإطباق أبوابها عليه، والاستيثاق بالعمد الممدّدة عليها، للدلالة على خلوده في النار أبد الآبدين. فحسبانه الخلود في الدنيا مقابل لحقيقة الخلود في النار. فهناك ظن وهنا يقين.وهناك خلود مظنون في الدنيا وهنا خلود واقع حقيقة في النار))[50].

وهناك وجه آخر لارتباط آخر السورة بما ورد في أولها، فقد ذكر في أولها ((أن هذا الكافر يتعدّى على الآخرين، فهو لم يكفّ أذاه عنهم، ولم ينلهم من خيره شيء، فهو يهمزهم ويلمزهم ويمنع خيره عنهم، فلم ينفق من ماله شيئًا.

(48) لمسات بيانية ص281.

(49) المصدر نفسه.

(50) المصدر نفسه ص281 ـ 282.

فلما اعتدى على الآخرين وآذاهم انبغى له الحبس لتخليص الناس من شره وعدوانه. والمحبوس تُغلَق عليه أبواب الحبس ويُستوثَق من إغلاقها وعدم فتحها لئلاّ يخرج منها. فناسب ذلك زيادة الاستيثاق بالعمد الممدّدة على الأبواب لئلاّ تفتح)) [51].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (في) في الآية الأخيرة بمعنى الباء، والمعنى ((أنها عليهم مؤصدة بعمد مُدَّت عليها)) [52].

ويبدو لي أن الأَوْلى إبقاؤها على معناها، ف (في) معناها الظرفية، والمعنى ((أن النار الموقدة في عمد، أي متوسطة عمدًا كما تكون نار الشواء، إذ توضع عمد وتُجعَل النار تحتها تمثيلاً لأهلها بالشواء)) [53].

وقد ذكر لي أحد الأفاضل أنه قرأ فيما قرأ أن المعنى يحتمل أن تكون النار ممدودة إليهم عبر أعمدة، أي تكون موصولة إلى أماكنهم عبر أنابيب أو قنوات، أو على شكل أسلاك الكهرباء التي تصل إلى أي مكان.

ثم إنه قال: (ممدّدة) بمجيء اسم المفعول من الفعل (مُدِّد) بالبناء للمجهول، ولم يقل: (ممدودة) بمجيئه من الفعل (مُدَّ) وذلك لسببين والله أعلم:

أحدهما: مراعاة فواصل الآي، فلو قال: (ممدودة) لاختلّ نظم فواصل الآيات، فقد قال قبلها: الموقدة ـ الأفئدة ـ مؤصدة، فناسب ذلك أن يقول: (مُمدَّدة).

والآخر أن (مُمدَّدة) اسم مفعول من (مُدّد) ولا شك أن تشديد الدال للمبالغة والتكثير، والمعنى أنه مبالغ في مدها، وهذا المعنى لا نفيده من (ممدودة). جاء في (التحرير والتنوير): ((والممدودة: المجعولة طويلة جدًا، وهو اسم مفعول من (مدّده) إذا بالغ في مده، أي الزيادة فيه)) [54].

---

(51) المصدر نفسه ص282.

(52) تفسير الرازي ج32 ص95.

(53) التحرير والتنوير ج30 ص476.

(54) المصدر نفسه.

وعندما نقارن بين ما ورد في آخر هذه السورة وآخر سورة البلد نجد أنه قال هنا : (في عمد ممدّدة) ولم يذكر هذه الزيادة في سورة البلد، وإنما اكتفى بقوله : ﴿عليهم نار مؤصدة ❖ ﴾ وسبب ذلك ((أنه توسع في سورة الهمزة في ذكر صفات المعذَّب وتوسع في ذكر العذاب ... فقال في ذكر صفات المعذَّب أنه همزة لمزة، وأنه جمع مالاً وعدّده، يحسب أن ماله أخلده، في حين لم يزد في سورة البلد على قوله : ﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾. ولما توسّع في صفات المعذَّب توسّع في ذكر عذابه فقال : ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ❖ وَمَا أَدْرَاكَ ... ﴾ فناسب ذلك ذكر الزيادة في سورة الهمزة دون سورة البلد))[55].

وقد تسأل : كان قياس الكلام أن يقول : (إنها عليه مؤصدة) بإفراد الضمير المجرور ب (على) ليناسب الآيات السابقة التي بنيت على الإفراد، فلمَ قال هنا : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ❖ ﴾ بضمير الجمع؟

والجواب أن هذا يسمى التفاتًا في علم البلاغة، ((وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر، تطرية واستدرارًا للسامع وتجديدًا لنشاطه وصيانةً لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه))[56].

والالتفات قد يكون عدولاً من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة كما في قوله تعالى : ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ [يونس 22] فقد التفت عن الخطاب في (يسيّركم) و (كنتم) إلى الغيبة في (بهم)، ولم يقل (بكم) على مقتضى السياق.وقد يكون عدولاً من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم، كما في قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه إلى بلد ميّت ﴾ [فاطر9] فقد التفت من ضمير الغيبة في (أرسل) إلى ضمير

(55) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص280 ـ 281.
(56) البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين الزركشي ج3 ص314.

التكلم في (فسقناه).وقد يكون عدولاً من ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع كما في آية الهمزة[57].

ويذكر الزمخشري فائدة الالتفات فيقول : ((إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد))[58]. وهذه الفائدة عامة.

وأما الفائدة التي اقتضاها المقام فإنه لما جمع الفؤاد على (الأفئدة) ناسب ذلك أن يأتي بضمير الجمع فيقول : (عليهم). والسبب الآخر لهذا الالتفات هو ورود كلمة (كل) التي ((تشعر بأن المهددين بهذا الوعيد جماعة وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدنًا لهم))[59].

والملاحظ أنه يكثر في هذه السورة ما يدل على الثبوت والدوام، من ذلك (ويل) الذي يدل رفعه ـ كما ذكرنا ـ على ثبوت العذاب ودوامه. ومنه (أخلده) أي أبقاه وأدامه، و (الموقدة) أي أن هذه هي الصفة الدائمة لنار الله، فهي دائمة الإيقاد لا تنطفئ، و (مؤصدة) بمعنى أنها دائمة الإيصاد لا تفتح، وكذلك (ممدّدة) فهذه صفة دائمة للعمد والله أعلم.

الخاتمة :

نحمدك اللهم كما علمتنا أن نحمد، ونصلي ونسلم على خير خلقك سيدنا محمد وبعد :

فيمكننا أن نجمل نتائج البحث بما يأتي :

- لسورة الهمزة علاقة بما قبلها وبما بعدها من السور، فلها علاقة بسورة العصر التي قبلها، وآياتها مكملة لآياتها. ولها علاقة أيضًا بسورة الفيل التي بعدها، بحيث تبدو السور الثلاث كأنها سورة واحدة. كما أن آيات سورة

(57) ينظر البلاغة والأسلوبية ـ الدكتور محمد عبد المطلب ص279 ـ 280، نقلاً عن كتاب (الأقصى القريب للتنوخي ص45 ـ 46).

(58) تفسير الكشاف ج1 ص64.

(59) التحرير والتنوير ج30 ص471.

الهمزة مرتبطة ببعضها أيّما ارتباط، فأول السورة مرتبط بوسطها وبآخرها، وآخر السورة مرتبط بما قبلها، بحيث تبدو السورة كأنها لوحة فنية متكاملة الأجزاء.

- للحركة الإعرابية والصيغ الصرفية أثر واضح وكبير في المعنى، وقد رأينا ذلك في الفرق بين معنى (ويلٌ) بالرفع ومعنى (ويلاً) بالنصب، والفرق بين معنى (جمَع) بتخفيف الميم و (جمّع) بتشديدها، والفرق بين معنى (همّاز) و (همزة) علمًا بأن كلتا اللفظتين صيغة مبالغة.
- يعنى القرآن الكريم عناية كبيرة بانتقائه الألفاظ، حيث ينتقي الألفاظ بدقّة ويضعها في المكان الذي يتطلبه سياق النص، حيث تصل هذه العناية إلى درجة أنه لا يمكن استبدال لفظة مكان أخرى وإن كانت مرادفة لها في المعنى، كما رأينا ذلك في اختياره لفظة (يحسب) بدل لفظة (يظن)، واختياره لفظة (لَيُنبَذَنَّ) بدل لفظة (لَيُلْقَيَنَّ) أو (لَيُطرَحَنَّ). كما أنه ينتقي الألفاظ التي تثير الرعب في النفوس إذا كان المقام يقتضي ذلك نحو (الحطمة ـ نار الله ـ تطّلع ـ مؤصدة).

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

والحمد لله رب العالمين

المراجع :

1. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ـ البناء الدمياطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.

2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ أبو السعود محمد بن محمد العمادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة 1414هـ ـ 1994م.

3. الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنيّر الإسكندري ـ طبع بهامش تفسير الكشاف للزمخشري.

4. بدائع الفوائد ـ ابن قيّم الجوزية ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

5. البرهان في تناسب سور القرآن ـ أحمد بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق الدكتور سعيد الفلاّح ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ إدارة الثقافة والنشر 1408هـ ـ 1988م.

6. البلاغة والأسلوبية ـ الدكتور محمد عبد المطلب ـ الشركة المصرية العالمية للنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1994م.

7. التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر ابن عاشور ـ مؤسسة التاريخ ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1421هـ ـ 2000م.

8. الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1416هـ ـ 1995م.

9. الجملة العربية والمعنى ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن حزم ـ الطبعة الأولى 1421هـ ـ 2000م.

10. حاشية الصبان على شرح الأشموني ـ محمد علي الصبّان ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

11. الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني ـ تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1371هـ ـ 1956م.

12.الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ـ السمين الحلبي ـ تحقيق الدكتور أحمد محمد الخرّاط ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.
13.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة 1405هـ ـ 1985م.
14.شرح التصريح على التوضيح ـ خالد الأزهري ـ تحقيق محمد باسل عيون السود ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1421هـ ـ 2000م.
15.شرح كافية ابن الحاجب ـ رضي الدين الإستراباذي ـ تقديم الدكتور إميل بديع يعقوب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.
16.شرح المفصل ـ موفق الدين بن يعيش النحوي ـ إدارة الطباعة المنيرية بمصر.
17.الفروق اللغوية ـ أبو هلال العسكري ـ تعليق محمد باسل عيون السود ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1421هـ ـ 2000م.
18.الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ جار الله الزمخشري ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
19.كنز المعاني شرح حرز الأماني ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الموصلي المعروف بشعلة ـ تحقيق زكريا عميرات ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1422هـ ـ 2001م.
20.لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ الطبعة الأولى 1414هـ ـ 1994م.
21.لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار عمار ـ عمان ـ الطبعة الأولى 1420هـ ـ 1999م.
22.معاني النحو ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مطبعة التعليم العالي في الموصل1986 ـ 1987.

23.مفاتيح الغيب المعروف بـ (تفسير الرازي) ـ الفخر الرازي ـ طهران ـ الطبعة الثانية.

24.المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ مراجعة محمد خليل عيتاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1420هـ ـ 1999م.

25.نظم الدرر في تناسب الآي والسور ـ برهان الدين البقاعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

26. همع الهوامع شرح جمع الجوامع ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق أحمد شمس الدين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1418هـ ـ 1998م.